

شعر

٢

أنت خلقت للبهجة!

مريد البرغوثي

هذا ما تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَهُ:

أَنْ تُلْقِيَ بِهَا فِي السَّلَّةِ.

||

الرّزنامة كلّها،

بشهورها الإثني عشر،

ترمي مضارعها في الماضي

شاعر فلسطيني مقيم في القاهرة.

كأنها «حقاً» غابت
مع آخر أجراسها:
مباهجها... لك أنت،
وأوجاعها... إلى النسيان.
||

لكنك، كل ليلة،
منذ الليلة،
ستسمع أصواتاً في العثمة،
حشخشة أوراقٍ تعبُرُ النافذة:
أيار / آذار / آب / شباط /
حزيران / كانون الثاني /
أيلول / تشرين / نيسان /
وَقَعَ حُطًى تُرِيدُهَا
وَحُطًى لَا تُرِيدُهَا،
هديلَ مَسْرَاتٍ
وهمهمة كوارثٍ.

||
ها هو الموت،
مُرْتدياً قلائدٍ من أفعال،
تصحبهُ سلوقيائهُ المَدْرَبَةُ،
يُحيطُ حَصْرُهُ بِحِزَامٍ أَبَدِيٍّ
يدسُّ فيه العناوين /
لَمَلَمَكَ مع ملاسسه الغامقة
ومناديله وأمشاطه

وَقُرْشَاةِ أَسْنَانِهِ الضَّحْمَةِ /
وَسَدَّكَ فِي حَقِيبَتِهِ الْأَبْنُوسِ
وَسَاقِرَ بَيْتِكَ
إِلَى حَيْثُ يَعْلَمُ وَلَا تَعْلَمُ /
لِتَكْتَشِفَ، بَعْدَ انْقِطَاعِ الْمَطْرِ
أَنَّهُ نَسِيكَ فِي اللَّحِظَةِ الْأَخِيرَةِ،
وَدُونَ أَدْنَى إِحْسَاسٍ بِالمَسْئُولِيَّةِ،
تَرَكَكَ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ!
وَأَنَّ الَّذِي مَاتَ
أَنَاسٌ غَيْرُكَ،
ذَهَبُوا لِأَسْبَابٍ غَامِضَةٍ
كَغُمُوضِ مَنَابِعِ الرِّيَّاحِ،
أَوْ ذَهَبُوا
مَلْفُوفِينَ بِرَايَاتٍ نَامَ فِيهَا الرَّفِيفُ.
||

وَدُونَ أَنْ تَسْتَدْعِي مَلَامِيحَهَا
هَا هِيَ تُعَاوِذُكَ
بِهَجَّتِكَ الْبَاذِخَةَ، بِهَجَّتِكَ الْمُعْتَقَةَ
الَّتِي، بِتَمَهُّلٍ وَمَكْرٍ،
حَبَّأَتْ مَفَاتِيحَهَا لِأَجْلِكَ أَنْتَ،
كَأَنَّهَا صَاعِقَةٌ تَحْمَرُّ
سَبْعَ سَنَوَاتٍ فِي الْأَعَالِي
ثُمَّ ضَرَبَتْكَ بِقُوَّةٍ
ضَرَبَتْكَ بِالطَّوْلِ وَبِالْعَرَضِ

وبالوَرَبِّ،
وخطفتُ صَوْلجانَكَ
وقد تَجَنَّبْتَهَا كَثِيرًا، دون جدوى،
لأنك، في الأَصْلُ،
(ولولا مئةٌ وَجَعِ ثُلُحٌ على زُجاجِكَ
كشخاذي إشارة المُرورِ)
أنتَ ... حُلِقتَ ... لِلْبَهْجَةِ.

||

المُجْتَمِعُونَ في المُنْتَدَى،
المَأخُودُونَ بِمِلامِحِكَ الحاسِمَةِ،
وصوتِكَ الصَّخِرِيِّ
لا يُذْركُونَ أَنَّ حَديقَةَ يَنْبِضُ فيها الرِّذاذُ
كَفَيْلُهُ بِقَتْلِكَ!

طِفْلٌ عَرِيبٌ يَضْحَكُ لَكَ في القِطارِ
يُسَمِّرُكَ شِجَاعًا وَجَبانًا في قَلْعَةِ جَسَدِكَ
وراعِبًا في الرَّقْصِ،
كالمَسْلُولِ!

تَمَتَّنُ لِلنَّسِمَةِ في القَيْطِ
كَأَنَّها قَوْزُكَ باليائِصِيبِ!
يُحْجِلُكَ أَنْ لا تَرُدَّ الحَمِيلَ لِلنَّبِيدِ،
(لم يَسألُ أَحَدٌ سِواكَ:
ماذا يَأْخُذُ النَّبِيدُ مِثًّا

لِقَاءِ هَذِهِ النِّشْوَةِ؟)

حنانك يبدأ من حُطَاكَ،
مِنْ حِذَائِكَ الْمَلْهُوفِ
الضَّحِكَةُ تَبْدَأُ مِنْ عَيْنَيْكَ

تَقُولُ لِقِسْوَتِكَ:
قَفِي فِي آخِرِ الصَّفِّ!
قَفِي فِي آآآخِرِ الصَّفِّ تَمَامًا!
وَاسْتَأْذِنِي فِي الدُّخُولِ!
اسْتَأْذِنِي سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي الدُّخُولِ!

لَا تَقُ لَكَ الصَّمْتُ وَالصَّحْبُ
لَا تَقُ لَكَ الرِّسْوُخُ،
وَلَا تَقُ لَكَ التَّحْلِيْقُ بَيْنَ نَوْرَسَيْنِ
كَأَنَّكَ جِسْرٌ
بَيْنَ ضِقَّتِي الْحُزْنِ وَالْمَسْرَةِ
لَا تَتَحَدَّثُ عَنْ أَحْمَالِكِ
وَلَوْلَا مَنَّهُ وَجَعِ ثَلْحُ عَلَيْكَ
أَنْتَ ... حُلِفْتَ ... لِلْبِهْجَةِ.
||

فِي أَوْجِ ذَلِكَ
هَا هُوَ دَيْلُ تَوْبِهَا الْأَسْوَدِ
يَكَادُ يَمَسُّ وَجْهَكَ النَّائِمِ:

حِداؤُ أَمَكِ الطويلِ،
صامتاً، مُستَوَحِشاً،
يَذرُغُ مَمَرَاتِ البَيْتِ.
||

عَبْرَ النَّافِذَةِ
تِلَالٌ مِنْ زَيْتُونٍ فَقَدْ اطمِنَّانَهُ العَتِيقُ
قَدَسَها مَن رَدَّدُوا الاِبْتِهالاتِ ذاتِها
عَبْرَ القُرُونِ،
وَمَن أَزالوا العُبارَ
عن الرقائِمِ واللِّقى
وَجُلودِ الماعِزِ،
تِلَالٌ مِنْ كَوَاكِبِ وَأُكْباشِ،
مِنْ صُلْبانِ وِقياماتِ،
وَأمواجِ نَسِيَتِ مِنْ أَيْنِ أَتَتْها
أَمواجِ سُكَّانِها،
تِلالٌ مَرَّتْ عَلَیْها المَمالِكُ
كما يَمُرُّ المَشْطُ في شَعْرِ أَجْعَدِ،
لَم يَثِقِنْ حِمائِها تاجُ
أَوْ تَمِيمَةَ،
ولم يَثِقِنْ حِمائِها نُورُ
أَوْ ظَلامِ.
||

عَبْرَ النَّافِذَةِ / في الأعالِي،

مَعْدُنْ هَادِرٌ،
مُطْمَئِنُّ الْجَنَاحَيْنِ،
دَقِيقُ التَّصْوِيبِ،
يَحُومُ بِاحْتَاءٍ عَنِ فِكْرَتِهِ الْقَادِمَةِ،
(أَهْيَ سَيِّدَةُ الْحِدَادِ الطَّوِيلِ؟)

يَبْحَثُ عَنْهَا
تَحْتَ الْقِيَابِ الْمَهْدَّةِ /

يَبْحَثُ عَنْهَا
قُرْبَ جِدَارِ النُّوْمِ،
حَيْثُ صُورَةُ الْغَائِبِ
تُؤَوِّدُ، بِالْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ،
ابْتِسَامَتَهُ الْأَخِيرَةَ!

يَبْحَثُ عَنْهَا
بَيْنَ الْمَلَأَاتِ الْبَيْضَاءِ
عَلَى جِبَالِ الْعَسِيلِ /

يَبْحَثُ عَنْهَا فِي الشَّارِعِ
ذِي الرُّضُوضِ الَّتِي لَمْ تَبْتَرِدْ بَعْدَ /

يُرِيدُ دَمَهَا الْآنَ،
وَعَدَاءً، وَعَدَاءً، وَعَدَاءً!

||

تِلَالٌ مُتَشَابِهَةٌ كَالْقَوَافِي،
تَحْمِيهَا بَدَلًا مِنْ أَنْ تَحْمِيكَ!
يَأْتِيكَ مِنْ سُفُوحِهَا الْمُهَدَّدَةُ
تَشِيدُ مُحَبِّبِهَا:
أَوَّلُهُمْ،
مَنْسِيٌّ فِي كُتُبِ الْأَقْدَمِينَ
وَأَخْرَهُمْ،
تَقِفُ الْآنَ صَامِتًا
أَمَامَ جَفْنَيْهِ الْمُسْدَلَيْنِ:
||

لماذا كلما شاهدتُ قتيلاً مُسَجِّجِي
ظَنَنْتُهُ شَخْصًا يُفَكِّرُ؟

ها أنتِ مَقْتُولٌ عَلَى الْأَرْضِ
وَالْأَرْضُ بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ!

قَلْبِكَ مُتَوَقِّفٌ تَمَامًا
وَالشُّرَابُ حَوْلَكَ يَنْبِضُ!

دَوْرَتُكَ الدَّمَوِيَّةُ
تُكْمِلُ شُعْلَهَا خَارِجَ جِسْمِكَ!

كُنْتُمَا اثْنَيْنِ: أَنْتِ وَمَطَالِبُكَ،

حَرَجْتُمَا مَعًا، قَاتَلْتُمَا مَعًا...
وَأَنْتِ/وَحَدَيْكِ/مُتِّ/

||

قَمَرٌ عَجُوزٌ
عُمُرُهُ تِسْعُ سَاعَاتٍ
لَا يَذْهَبُ إِلَى أَقْوَلِهِ
دُونَ أَنْ يَتْرُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ
عِزَاءَاتٍ مُدَاهِشَةً:

فِي عَصْرِ مِنَ الْفِخَاخِ،
لَا تَزَالُ الْعَصَافِيرُ تَلْقُطُ رِزْقَهَا
وَتَمَلَأُ الْقِضَاءَ!

فِي حَقْلِ الْأَلْغَامِ
الْمُنْسِيٍّ مِنْذِ الْحَرْبِ الْأَخِيرَةِ،
(وَالْعُرُوبِ الدَائِخِ بِالْحُمَى
يَنْدَسُّ، مَرْتَجِفًا، فِي فِرَاشِ الْأَفْقِ)
لَا يَزَالُ الرَّيْفِيُّ
يَعُودُ سَالِمًا إِلَى الْبَيْتِ
بَسِكَّةٍ مَحْرَاثِهِ،
وَشَبَقٍ قَحْدَيْهِ،
بَيْنَمَا الطُّرُقُ الَّتِي يَسْلُكُهَا
تُفَكِّرُ فِي الْإِنْفِجَارِ!

في الجسدِ المعطلِ
لا تزالُ عَصَلَةُ الحَيَالِ
تُتْرَكُ كدماتٍ لا تُداوَى
في فكٍّ مَنْ تَشَاءُ!

في قِصْرِ الطَّاعَةِ،
لا تزالُ هناكَ عُرْفَةٌ مُعَلَّقَةٌ،
يُنظَّفُ فيها أَحَدُهُمْ
أَسْلِحَةَ العِصْيَانِ!

يَطْمَئِنُّ الغَالِبُونَ إلى أَنهْمُ أَحْمَدُوكَ
لكِنَّكَ، بَعْدَ كُلِّ جَوْلَةٍ،
عندما تُرْسِلُكَ الخِسَارَاتُ
إلى بَرِّيَّةِ سَرِيرِكَ،
تَنَامُ،

كما تَنَامُ الشَّرَارَةُ في حَجَرِ الصَّوَانِ!

||

ها أنتِ تضحكُ كما ضَحِكْتَ أَوَّلَ مَرَّةٍ
(قَبْلَ سُكُوتِ الأَجْرَاسِ،
وذبولِ التَّرَاتِيلِ)
مِنْ رَقِصَاتِ الطُّفْرِ،
وَأَنْخَابِ التَّهْنَانِي،
عندما انْتَصَرَتِ الإمبراطوريَّةُ
على سَائِقِ البِغَالِ

المُسَلِّحَ بِعَكَازٍ مِنَ الْبَلُوطِ!

ها أنت تَضْحَكُ
عندما أَقْصَحَ الْعَصْرُ
عن تَعْدِيلاتٍ مُدْهِشَةٍ فِي شَرْفِهِ
حيث السَّيْفُ فِي يَدٍ وَاحِدٍ قَطُّ
مِنَ الْمُتَبَارِرِينَ!!

للجِسْمِ رَقِصَتُهُ، ولو بين الحِبَالِ
للرُّوحِ شَهْوَتُهَا، ولو فَوْقَ الصَّلِيبِ
الحَرْبُ تُوْغِلُ فِي فُكَاهَتِهَا
إِذَا قَصَفُوا الْقِرَاشَةَ بِالْقَذِيفَةِ!
ثم تُمَعِنُ فِي التَّوَعُّلِ فِي فُكَاهَتِهَا
إِذَا مَا لَاحِظُوا أَنَّ الْقِرَاشَةَ لَمْ تَمُتْ
وَعَدَتْ، بِكَامِلِ ضَعْفِهَا، أَحْلَى
وَأَعْلَى مِنَ يَقِينِ الْعَسْكَرِيِّ
وَمِنَ غُلُومِ الْحَرْبِ!
نِصْفُ النَّصْرِ أَنَّ قِرَاشَةَ عَزَلَاءَ،
إِلَّا مِنْ جُمُوحِ جَنَاحِهَا وَجَمَالِهَا،
دَخَلَتْ مَعَ الْمَوْتِ الْمُؤَكَّدِ
فِي سِجَالِ!
سَتموتُ،
تَعرفُ أَنَّهَا سَتموتُ
مِنَ أَوْصَافِ قَاتِلِهَا،

وَمِنْ أَوْصَافِهَا ،

لِكَنَّهَا

سُتْطِلُّ مِنْ شُبَّانِكِ يَا سِ قَادِمِ

وَتَرَفُّ فِي عُرْفِ الْحَيَالِ:

لِلرَّوْحِ شَهْوَتِهَا ،

وَلَوْ فَوْقَ الصَّلِيبِ

لِلجِسْمِ رَقِصَتُهُ ،

وَلَوْ بَيْنَ الْحَيَالِ .

//

الليلُ يَغْلِي ، على مَهْلِهِ ،

في العُرْقَةِ

والليل يهدأ ، على مَهْلِهِ ،

في البال... .

سُكُونٌ... .

سُكُونٌ عُمُوضٍ ؛

سُكُونٌ احْتِمَالَاتٍ ،

سُكُونٌ يُشْبِهُ مُرُورَ الْعَيْنِ

على سَطُورِ رِسَالَةٍ مِنْ مَجْهُولٍ... .

ثم ،

حَشْحَشَتُهُ عَلَى التَّافِذَةِ ،

ها هم وصلوا معاً :

شَبَّحَ الْمَلِكُ الْمَعْدُورَ

الذي يَحُضُّ الأَمِيرَ الوَسِيمَ
على اكتشافِ يَدَيْهِ
ويحضُّ عَيْنَيْهِ على الانتباه
وجنونه على الرُّشدِ
ورُشدُهُ على الجنونِ،
وجُنُونُهُ على الانتقامِ،
السَّاحِرَاتُ،
اللواتي بُعِثْنَ مِنْ مَحَارِقِ العُصُورِ،
مُتَوَجَّاتٍ بِأَكَالِيلِ الحَطَبِ
ومَطْعُونَاتٍ بِالمُقَدَّسِ،
الصعاليكُ المقتولونِ،
الذين صَعَدُوا إلى روعةِ قِضَاءِ كَاسِرِ
هازئِينَ بالأوتادِ
وَوَقَّعُوا مَعَاهِدَاتٍ أَنِيقَةً
مع موتهم الوَسِيمِ
مُشَقَّقِينَ على عِبَاءِ شُيُوخِهِمْ
ولم يَتْرَكُوا لِنِسَائِهِمْ
إِلَّا مَا تَدَكَّرَهُ الرُّوَاهُ الرُّحَلُ
مِنْ إِيْقَاعَاتِ شَوْقِهِمْ إلى أَرْضِ
لَيْسَتْ كالأَرْضِ
وَتَوْقِهِمْ إلى سَمَاءِ
ليست مُسَوَّجَةً مِنَ الوَيْرِ/
ها هم، واحداً بعد الآخرِ،
يَلْمِسُونَ كَتْفَكَ الآنِ،
وبأصواتٍ تُنَوِّرُهَا اللهفةُ،

يُعَلِّقُونَ أَوْامِرَهُمْ عَلَى حَيْطَانِ لَيْلِكَ،
كَالْقَنَادِيلُ:

- أَيُّهَا الْمُفْرَدُ!

أَيُّهَا الْمُتَوَارِي فِي صِفَاتِكَ!

- كُنْ شَرِيرًا،

- مُرْعَجًا،

- عُدْوَانِيَّيَ الْحَوَاسِ،

كَمَا يَلِيقُ!

- كُنْ مَآكِرًا،

- مُجَازِفًا،

- مَشْدُودَ السَّاقِينَ،

كَمَا يَنْبَغِي!

- أَحَبُّ نَفْسِكَ حَتَّى الْغُرُورِ!

- لَا تُفَسِّرْ نَوَايَاكَ،

- أَوْ عُمُوضَ خُطَاكَ

- لَا تُفَسِّرْ رِضَاكَ

- سَتَحْتَاجُ إِلَى عُمَرَيْنِ كَامِلَيْنِ

كَي تُرَضِيَ عَابِسًا وَاحِدًا!

- وَحِينَ ثَلَامِ

حُذِّ طَعْنَةَ اللَّوْمِ بِابْتِسَامَةٍ قَوِيَّةٍ

- ذَكَرَهُمْ بِمَا قَالَهُ الطَّائِفُونَ:

«أَنَا لَا أَنْكِرُ،

أَنَا لَمْ أَنْكِرْ، أَيُّهَا السَّادَةُ،

لَكِنْ، مَاذَا عَنِ غُرُورِ الْجُرُودِ «...!!!

- كن مَوجوداً مُستتِراً،
ككهرباء، غَيَمَتَيْنِ،
- كن صُلباً، مُراوغاً،
- شيطانِيّ الحيلة،
- لَأَنَّكَ، أُوَيْهَا النَّافِرِ الغريب
احتراماً لروحِكَ،
لا بُدَّ أن تَكْذِبَ على هذا العالمِ!
||

مقتطف من قصيدة طويلة
تصدر قريباً